الفصل الثاني

البعثـــات

أهم أغراضها : تكوين جيل من الأساتذة والعلماء مثقفين ثقافة أوربية ، إعداد المترجمين لترجمة الكتب في مختلف العلوم والفنون ؛ أول عمل كان يعهد به إلى المبعوثين هو الترجمة ، تكليفهم بالترجمة وهم في المحجر الصحي ، عثمان نور الدين يبـــدأ حركة الترجمة ، ترجمة لوائح البحرية الانجليزية لاستعمالها في البحرية المصرية ، بعض المبعوثين يترجمون كتبا في الفنون التي تخصصوا فيها ، عضو واحد تخصص في الترجمة الباقون أعدوا لإتقان اللغات الأجنبية ليشاركوا في حركة الترجمة

كان الغرض الأول الذي دفع محمد علي إلى إرسال البعثات المختلفة إلى ممالك أوروبا أن يكون في مصر جيلا من الأساتذة والعلماء تلقوا العلم الأوروبي في أوربا وبلغات أوربا ليحلوا بعد عودتهم محـــل الأساتذة والأطباء والمهندسين والضباط والصناع من الأجانب ، وقد نجح محمد علي في تحقيق غرضه هذا إلى حد كبير .

أما غرضه الثاني ، وهو الذي يعنينا هنا ، فهو أن يكون أعضاء هذه البعثات أداة صالحة لنقل علوم الغرب وفنونه . وترجمتها إلى اللغة العربية ، لأن محمد علي لم يكن - كما ذكرنا آنفاً - متطرفا في النقل عن الغرب ، وإلا لأبقى أساتذة الغرب ، وجعل التعليم في مدارسه بلغات الغرب ، ولكنه كان رجلا حصيف الرأي بعيد النظر ، فاحتفظ لمصر بقوميتها [1] ولغتها ، ونقل اليها علوم الغرب رغم ما كلفته هذه الغاية الحميدة من مشاق وتكاليف .

ولذلك كان أول عمل يسنده محمد علي إلى أعضاء البعثات ، إمدادهم بالكتب ، والتنبيه عليهم بسرعة ترجمتها ، وقد بلغ من حرص الحكومة على أن يكون لديها أكبر قدر من الكتب المترجمة في أقصر وقت أن كانت تقدم لهم الكتب وهم مايزالون مقيمين في المحجر الصحي ، ثم كانت تحتجزهم في مكان خاص ، ولا تدعهم يخرجون إلى أهلهم حتى يتموا ترجمة ماعندهم من الكتب ، وكثير منهم كانت الترجمة تشغله عن

---

(١) والقصة التالية خير شاهد على رغبة محمد علي الشديدة في احتفاظ المصريين بقوميتهم : « سافر أدهم بك رئيس المدفعية ومدير ورش المهمات الحربية مع بعثة من أحد عشر من معلمي الحرير بمصر إلى انجلترا ، وهناك تزيا أدهم بك بزي الانجليز ، وحاكاهم في أحوالهم وعاداتهم ؛ وعلم بذلك محمد علي باشا فأرجعه مغضوبا عليه ، وقال : « انني بعثته ليعلمنا طريقاتهم ، ويقف على صنائعهم لبثها في مصر ، لا ليتقادم في ملابسهم وعاداتهم » ثم عفا عنه بعد ذلك بشفاعة حفيده عباس باشا ، وقد عين أدهم بك مديرا لديوان المدارس فلما اصطفى مختار بك في ١٧ مايو سنة ١٨٣٩ . أنظر عمر طوسون ، البعثات العلمية في عصر محمد علي ، ص ١٦٣ ، هامش ١ ،

واجبات وظيفته التى يتقلدها ، والبعض منهم لم يكن له من حذق اللغات الأجنبية والعربية ، والقدرة على التحرير والكتابة ما يمكنه من ترجمة ما عهد اليه ترجمة صحيحة ، فلما أنشئت مدرسة الألسن ، وكوّن قلم الترجمة من خريجيها رُفع عن أعضاء البعثات عبء لاشك كان ثقيلا على أكثرهم » . (١)

وهناك عوامل مختلفة كانت تدفع محمد على إلى العناية الفائقة بالبعثات ، والاكثار منها — كما وكيفا — أول هذه العوامل رغبته الملحة فى النهضة بمصر والمصريين فى أسرع وقت ممكن ، وثانيها أن هؤلاء الأجانب الذين استعان بهم ، أول الأمر لتعليم المصريين لم يكونوا جميعاً « أكفأ من أنجبت بلادهم ، بل إن منهم كثيرين كانوا جوابين يضربون فى الأرض » (٢) ، وثالثها أن حرص هؤلاء الأجانب على إطالة مدة خدمتهم وارتزاقهم « لم يكن مما يجعلهم يتحمسون كثيرا لتلقين المصريين فنونهم » (٣) .

وفى الحديث الذى أدلى به محمد على للدكتور « بورنج Bowring » مندوب الحكومة الانجليزية إيضاح كامل للبرنامج العظيم الذى وضعه نصب عينيه ليتحقق على أيدى أعضاء البعثات ، وفيه أيضاً دليل قوى على عبقرية محمد على ذلك الرجل الأمى الذى ساقته العناية الإلهية لتعليم شعب بأسره ، قال محمد على لبورنج : « إن أمامى الشىء الكثير لأنعلمه أنا وشعبى ، فأنا الآن مرسل إلى بلادكم أدهم بك ، ومعه خمسة عشر شابا مصريا ليتعلموا مايمكن لبلادكم أن تعلمه ، فعليهم أن ينظروا إلى الاشياء بأعينهم ، وأن يتمرنوا على العمل بأيديهم ، وعليهم أن يختبروا مصنوعاتكم جيداً ، وأن يكشفوا كيف ولمَ تفوقتم علينا ، حتى إذا ماقضوا وقتا كافيا بين شعبكم عادوا إلى وطنهم ، وعلموا شعبى . . . » (٤)

وقد أرسلت فى عهد محمد على سبع بعثات ، كانت أولاها فى سنة ١٨٠٩ إلى إيطاليا ، ثم تعددت البعثات إلى إيطاليا وفرنسا وانجلترا والنمسا لدراسة الطب والهندسة والفنون الحربية والبحرية والترجمة والحقوق والإدارة والكيمياء والتاريخ والعلوم الرياضية والزراعة والطباعة وصناعة السفن والنسج بأنواعه والسباكة . . الخ . . الخ ، وكانت آخر هذه البعثات إلى إنجلترا فى أوائل سنة ١٨٤٨ ، أى قبل أن ينتقل محمد على إلى الرفيق الأعلى بسنة واحدة .

وليس يعنينا هنا أن ندرس تاريخ هذه البعثات وأعدادها والعلوم التى أرسلت لدراستها ، وأعمار المبعوثين ، ومبلغ ثقافتهم ، ومدى نجاح كل منهم . . الخ ، ففى كتب : التعليم فى عصر محمد على للدكتور

---

(١) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤٢٨ (عن وثائق عابدين) ، ويؤيد هذا ما ذكره الرافعى ، عصر محمد على ، ص ٥٣٧ فقد قال « ومما يروى عنه فى هذا الصدد أنه لما عاد أعضاء البعثة الأولى إلى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة ، وسلم كلا منهم كتابا بالفرنسية فى المادة التى درسها بأوروبا ، وطلب إليهم أن يترجموا تلك الكتب إلى العربية ، وأمر بإعاشتهم فى القلعة ، وألا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد به إليهم ، فترجموها فعلا ، وأمر بطبعها فى مطبعة بولاق ، وتوزيعها على المدارس التى وضعت لها تلك الكتب » .

(٢) و (٣) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤٢٢ .

(٤) Bowring, Report on Egypt and Candia. p. 147,

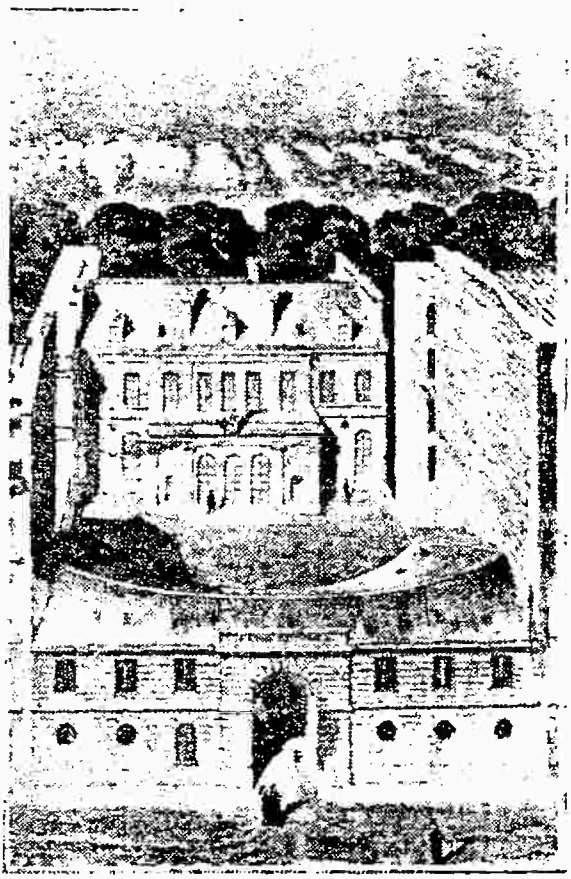

المدرسة المصرية التى أنشأها محمد على
فى باريس لإقامة أعضاء البعثات

أحمد عزت عبد الكريم ص ٤٢٢ — ٤٥٣ ، والبعثات العلمية فى عهد محمد على للأمير عمر طوسون ، ص ٥ — ٤١٤ ، وعصر محمد على للأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك ، ص ٤٥١ — ٤٦٩ ، وغيرها كثير ، غناء لمن يريد العلم بأخبار هذه البعثات ؛ ولكن يعنينا هنا أن نذكر أن هذه البعثات كانت أداة صالحة جدا لنقل علوم الغرب وفنونه وصناعاته إلى مصر علما وعملا ، وسنترجم لمن اشتغل بالترجمة من أعضاء البعثات فى الفصل الخاص بالمترجمين ثم نذكر فى قائمة الكتب المترجمة أسماء الكتب التى ترجمها هؤلاء المبعوثون فى مختلف العلوم والفنون .

ويكفى أن نشير هنا إلى بعض الحقائق ومنها :

١ — أن عثمان نور الدين (باشا) — وهو أول مبعوث مصرى إلى أوربا — كان « ساعد الحكومة الأيمن فى ترجمة الكتب ، فقد خصص له قصر اسماعيل بن محمد على فى بولاق ، وألحق به بعض المترجمين ليترجموا « كتب الفنون الحربية وسائر الصنائع » [١] .

٢ — وأن أعضاء البعثة البحرية التى أرسلت إلى انجلترا سنة ١٨٢٩ ، قاموا بعد عودتهم — إلى جانب عملهم فى الأسطول المصرى . بترجمة اللوائح البحرية الانجليزية لاستعمالها فى البحرية المصرية [٢] .

٣ — وأنه كان يعهد إلى بعض أفراد البعثات بترجمة كتاب يتصل بفنه الذى يدرسه كما عهد إلى على عبد الرحيم أفندى عضو بعثة سنة ١٨٢٩ الصناعية بترجمة كتاب عن معمل القطن ، وكما عهد إلى زميله فى نفس البعثة حنفى اسماعيل افندى بترجمة كتاب فى صناعة الآلات [٣] .

٤ — لم يعد للتخصص فى الترجمة من بين جميع أعضاء البعثات إلا رفاعة رافع الطهطاوى ، غير أنه كان يراعى دائما فى منهاج الدراسة إعداد المبعوثين للتخصص فى علومهم وفنونهم أولا ، ثم اتقان اللغات الأجنبية ثانياً ليترجموا كتباً فيما تخصصوا فيه ، فكان أعضاء البعثة الصناعية التى أرسلت إلى فرنسا فى أوائل سنة ١٨٣٠ يدرسون علم بيان اللغة الفرنسية على أستاذ خاص [٤] ، وكذلك نص فى الامر الصادر بتكوين البعثة الطبية التى كان مزمعاً إرسالها إلى فرنسا فى أوائل سنة ١٨٤٨ أن « يتعلموا جميعا اللغة الفرنسية والطب ، حتى إذا عادوا إلى مصر اشتغلوا بالترجمة . . » [٥] ، وأن محبوب الحبشى وهو أحد التلاميذ الاحباش الذين أرسلوا إلى فرنسا حوالى سنة ١٨٣٢ لتعلم فن النقش كان يتعلم هناك « اللغة العربية والفرنسية والإيطالية واشتريت له كتب فى علم الجغرافية » [٦]

---

(١) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤٣٥ .
(٢) أنظر عمر طوسون ، المرجع السابق ، ص ١١٣ — ١١٧ .
(٣) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤٤٠ .
(٤) عمر طوسون ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .
(٥) عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤٥١ — ٤٥٢ .
(٦) عمر طوسون ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ .